المحاضرة رقم (01):

عوامل نشأة التفكير البلاغي عند العرب

1- توطئة:

إنّ البحث البلاغي عند العرب مر بمراحل متعددة حتى وصلنا إلينا في هذه الصورة المعهودة اليوم، والتي قُسم بموجبها - أي علم البلاغة- إلى العلوم الثلاثة المعروفة: علم المعاني، وعلم البيان وعلم البديع.

ولكنّ المتأمل في هذا الدرس ينبغي أن يطرح تساؤلات، أهمها، العوامل التي ساعدت في ظهور هذا التفكير البلاغي عند العرب أولا، ثم التطور الحاصل في مفهوم البلاغة عندهم، وما هي المصنفات البلاغية التي يمكن أن نتوقف عندها للنظر في مقولاتها؟.

2- عوامل نشأة البلاغة:

لا شكّ أنّ أيّ علم يظهر للوجود تكون له مسببات دفعت العلماء إلى تحقيق التفكير به، وهو ما حصل فعلا مع البلاغة العربية، سواء كان ذلك قبل مرحلة نزول القرآن الكريم، أو بعده. ومن ثم يمكن أن نذكر تلك العوامل وفق ما يأتي:[1]

2-1 الشعر:

يعتبر الشعر مميزا هاما للحضارة العربية الإسلامية، اهتمّ به العرب، بل كان ديوانهم، وهو " علم قوم لم يكن أصح منه" فقد أدى هذا الاهتمام إلى البحث عن طرق في تذوقه، لتعيين الحسن والردئ، فكانوا عن طريق الفطرة مدركين لبعض خصائص هذا الشعر، فالاهتمام بتلك الخصائص

[1] - للتفصيل أكثر في العوامل التي ساعدت على نشأة البحث البلاغي، ينظر، التفكير البلاغي عند العرب، حمادي صمود، الكتاب الجديد، ط3، 2010، ص23.

Scanné avec CamScanner

هو في نظرنا اهتمام بالتفكير البلاغي، فنأخذ مثالا لذلك [1]، ما يروى عن النابغة الذبياني، الحاكم للشعر، الذي تطاول عليه حسان بن ثابت، وتحدي حكمه بأن يكون الشعر من الخنساء، حين فضل عليه النابغة، الأعشى والخنساء. ومنه قال حسان:

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى*** وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمًا

وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ ، وَابْنَيْ مُحَرِّقٍ*** وَأَكْرِمْ بِنَا خَالًا ، وَأَكْرِمْ بِنَا ابْنَمَا.

فقال النابغة " :إنك لشاعر لولا أنّك قللت عدد جفانك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك، وفي رواية أخرى فقال له: إنك قلت الجفنات فقلت العدد ولو قلت الجفان لكان أكثر. وقلت يلمعن في الضحى، ولو قلت يبرقن الدجى لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقا. وقلت: يقطرن من نجدة دما. فدللت على قلة القتل، ولو قلت يجرين لكان أكثر الضباب الدم، وفخرت بما ولدت ولم تفخر بمن ولدك، فقام حسان منكسرا منقطعا "[2].

والنابغة يعلم أنّ حسان بن ثابت أراد أن يصف قومه وشجاعتهم وعراقة أصولهم في العرب، وأراد أن يبالغ في هذه الأوصاف بقدر ما تمتلئ به نفس شاعر عاش حياة قبيلة متناحرة، وهو إذن يريد أن يمد حبل المبالغات في بيان هذه الأوصاف إلى مداه.

وفي النص دلالات واضحة على بدء التفكير في تذوق الشعر من حيث النظر في بنيتها الداخلية (خصائص لغته) ، والتوصل إلى التميز بين الألفاظ في قرض الشعر ، فليست كلها معبرة عن المعنى المراد ، ولما نقول بداية التفكير باللغة والنظر في خصائص ال التفكير البلاغي عندهم .

وتلك الملاحظات البلاغية واردة في روايات أخرى، نقلتها كتب التراجم؛ وممّا ذكر ردّ طرفة على قول المسيب ابن علس:

وَقَدْ أَتَنَاسَى الْهَمَّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ*** بِنَاجٍ عَلَيْهِ الصَّيْعَرِيَّةُ مُكْدَمِ

يشرح محمد أبو موسى فيقول: " أي أنه يتناسى همومه بأسفاره التي يندفع فيها مغامرا مستبسلاً على بعير قوي ناج راكبه، والصيعرية وسم في نق النّاقة، والمكدم الفحل الغليظ الصلب،

[1] – ينظر، شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ص 11.

[2] ابن الأثير: المثل السائر، تح: الحوفي، ج 3، ص 186 .

Scanné avec CamScanner

جامعة عنابة
المكتبة المركزية

قالوا لما سمع طرفة هذا البيت، قال للمسيب: استنوقت الجمل، أي أنك وصفت البعير بوصف الناقة، وهذا عند البلاغيين وصف شيء بغير صفته، ووضع للفظ في غير موضوعه، لانتفاء المطابقة بين ما يتطلبه الحال وبين اللفظ الدال "[1].

2-2 القرآن :

غدا القرآن القطب الذي دارت حوله المجهودات الفكرية زمنه، وذلك لبيان قضية إعجازه واستخراج وجه التحدي فيه، فانعكس ذلك على الاهتمام بلغته ومن ثم تقنين اللغة العربية، خوفا من أن يصيب الفساد القرآن، فقد استفادت البلاغة العربية من وراء الاهتمام بالنص القرآني، وكان مرد الاستفادة إلى بيئة المعتزلة وبيئة المتكلمين، من حيث تأويل المعتزلة لأي الذكر الحكيم على أصولهم العقائدية ومن بينهما مبدأ التوحيد. ويمكن أن نلخص عمل المتكلمين على مستويين[2]:

- ما تعلّق بقضية الإعجاز وتأويل بعض المعتزلة لذلك وما نشأ عنه من ردود فعل تواصلت إلى وقت متأخر جدا بل إلى العصر الحديث.
- ما اضطر إليه المعتزلة من تأويل لكثير من الآيات التي يتنافى ظاهرها مع أصولهم العقائدية- خاصة مبدأ التوحيد- فحملوا هذه النصوص على المجاز وأصبح هذا المظهر اللغويّ الموضوعي دعامة لمبائدهم مما جعلهم يهتمون به ويفيضون في شرحه.

[1] محمد أبو موسى: خصائص التراكيب، ص 44

Scanné avec CamScanner

المجلس العلمي

2-3 تقعيد اللغة :

لقد دفع ع القرآن والشعر من المصادر اللغوية التي رجع إليها اللغويون لتقعيد اللغة، فاستخرجوا خصائصهما النوعية وفق مشاغل نحوية في درجة الأولى، لكن ذلك أخرجهم إلبعض الملاحظات البلاغية ، فنجد ابن جني (ت392هـ) يعالج مبحث " الحقيقة والمجاز " في كتابه :" الخصائص" [1]، وهو أهم مبحث يقوم عليه علم البيان إلى اليوم. ويلخص حمادي صمود كيف أسهم عملية تقعيد اللغة في نشأة البلاغة، يقول فيما بيانه: " ولا شكّ أنّ إدراجهم القرآن والشعر في عداد المصادر اللغويّة قد نبههم إلى بعض خصائصها النوعية ودفعهم في نطاق مشاغلهم النّحوية إلى جملة من الملاحظات البلاغية المفيدة خاصة أنّهما يخرجان عن معهود الكلام ويستعملان اللغة استعمالا خاصا لمقاصد فنيّة واضحة"[2] .

ومن ثمّ فقد كانت قواعد اللّغة التي استخرجها النّحاة معيارا في تذوق الكلام وتحليله عند البلاغيين، وهي المسألة التي تثبتها التداخل الحاصل بين النحو ومباحث علم المعاني.

2-4 الحاجة إلى التعلم و التعليم :

لقد أدى التطور الحضاري للعرب بعد استقرارهم في المدن ، وظهرت مع ذلك فئات اجتماعية تقوم على صناعات لم تكن الحاجة إليها سابقا ، ومنها من فئة المؤدبين والمعلمين ، ففي عهد الدولة الأولى اشتغلت هذه الطائفة إلى تعليم الأولاد المرشحين على تعليم البلاغة لأمور عقائدية في بيئة المكتملين و المعتزلة. و أما الطاقة الثالثة تقوم على تأديب على الكتّاب المحلقين في مؤسسات الدولة بديوان الرسائل والكتابة .

ذكر الجاحظ أهمية المؤدّب ومكانته في العلم، وقد كان بعضهم أعلاما في العلم كالكسائي، وقُطرُب، والكُميت بن زيد وعبد الحميد الكاتب، وأيضا ابن المقفع الذي له ملاحظات بالغة الأهمية في البلاغة، نقل عنه الجاحظ كثيرا من النصوص في البيان والتبيّين.

---

[1] -ينظر، ابن جني: الخصائص ، تحقيق الشربني شريدة، دار الحديث، القاهرة، 2007، ص 418.

[2] حمادي صمود: المرجع السابق، ص 47.

Scanné avec CamScanner

جامعة غليزان
المخبر المتوسطي للدراسات
كلية الآداب واللغات

ويعتبر أمين الخولي أنّ العمل الذي قام به المؤدّبون " أوّل تغيير يدخل على منهج الفنّية الفطرية"[1].

أمّا الطائفة التي تعلّقت بالمتكلمين فقد اهتموا كثيرا بتعلّم البلاغة؛ لأنّها في نظرهم غاية هامّة تساعدهم في مجالس المناظرة والمجادلة، ومن هنا ارتبطت البلاغة بالاعتقاد، " قيل لعَمرو بن عُبيد: ما البلاغة؟ قال: ما بلغ بك الجنّة وعدل بك عن النّار، وما بصّرك مواقع رشدك وعواقب غيّك"[2].

وناقش الجاحظ في كتابه السياق الذي ظهرت فيه صحيفة بشر بن المعتمر، ويعتبر أنّ الدافع في ظهورها كان لغاية تعليمية، وهي التي احتوت قواعد الخطابة وقوانينها، وأشارت إلى مسائل بلاغية ذات أهمية تعلّقت باللفظ والمعنى .

أمّا الطائفة الثالثة التي اشتغلت على تأديب الكتّاب فهي قديمة جدّا تعود إلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلّم؛ ويذكر ابن خلدون أنّ الكتابة أصبحت صناعة بتطور الدولة وفساد اللسان؛ ولهذا كان لا بدّ من وجود أشخاص مهمتهم الكتابة[3]. بل إنّ هذه الطائفة اشتهرت بجودة نثرها في القرن الثاني الهجري، واستعمالها للبلاغة بتمكّن وجدارة.

2-5 المؤثرات الأجنبية:

أشار بعض الباحثين إلى وجود عناصر غير عربية في موروثنا البلاغي، فقد كان الاهتمام بتأثر البلاغة العربية بالبلاغة اليونانية من الدراسات النوعية المعاصرة؛ إذ تناول طه حسين القضية في بحث وسمه ب " **البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر**"، وتتبعه في ذلك تلميذاه أمين الخولي وشوقي ضيف.

وواضح أن الاهتمام بالبلاغة اليونانية كان في فترة مبكرة من تطور الدرس البلاغي عند العرب فكتاب الخطابة لأرسطو كان معروفا في القرن الثالث الهجري، وشرحه الفارابي (ت

---

[1] أمين الخولي: مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، ص 100.

[2] الجاحظ : البيانو التبيين، ج1، ص 114.

[3] ابن خلدون: المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط3، 1967، ص 436.

Scanné avec CamScanner